

رفاعة رافع الطهطاوى

١٨٠١ — ١٨٧٣



مصرى صميم ، من أقصى الصعيد ، نشأ نشأة
عادية ، من أبوين فقيرين ، قرأ القرآن ، وتلقى العلوم
الدينية كما يتلقاها عامة طلبة العلم في عصره ، ودخل
الأزهر كما دخله غيره ، وصار من علمائه كما صار
الكثيرون ، ولكنه بزم الأقران ، وتفرد بالسبق عليهم ،
وتسامت شخصيته إلى عليا المراتب ، ذلك أنه كان
يحمل بين جنبه نفسا عالية ، وروحا متوثبة ، وعزيمة
ماضية ، وذكاء حادا ، وشغفا بالعلم ، وإخلاصا للوطن

وبنيه ، تهيأت له أسباب الجد والنمو ، فاستوفى علوم الأزهر في ذلك العصر ، ثم سحب البعثة
العلمية الأولى من بعثات محمد على ، وارتحل إلى معاهد العلم في باريس ، واستروح نسيم
الثقافة الأوروبية ، فزادت معارفه ، واتسعت مداركه ، ونفذت بصيرته ، لكنه احتفظ
بشخصيته ، واستمسك بدينه وقوميته ، فأخذ من المدنية الغربية أحسنها ، ورجع إلى وطنه
كامل الثقافة ، مهذب الفؤاد ، ماضى العزيمة ، صحيح العقيدة ، سليم الوجدان ، عاد وقد
اعتزم خدمة مصر من طريق العلم والتعليم ، فبرّ بوعده ، ووفّى بعهده ، واضطلع بالنهضة
العلمية تأليفا وترجمة ، وتعلما وتربية ، فلأ البلاد بمؤلفاته ومعارفاته ، وتخرج على يديه جيل
من خيرة علماء مصر ، وحمل مصباح العلم والعرفان يضيء به أرجاء البلاد ، وينير به البصائر
والأذهان ، وظل يحمله نيفا وأربعين سنة ، وانتهت إليه الزعامة العلمية والأدبية في عصر محمد
على ، وامتدت زعامته إلى عهد إسماعيل ، ذلك هو رفاعة رافع الطهطاوى^(١) .

ولد في طهطا بمديرية جرجا سنة ١٨٠١ (١٢١٦ هـ) ، وبدأت عليه مخايل الذكاء

(١) عن ترجمته في كتابنا تاريخ الحركة القومية الجزء الثالث — عصر محمد على .

والنباهة منذ صباه ، ودخل الأزهر سنة ١٨١٧ ، ولم يمض عليه به بضع سنوات حتى صار من طبقة العلماء ، وتولى التدريس فيه سنتين ، وصنف وألف ودرس وهو في الحادية والعشرين من سنه ، ثم عين واعظاً وإماماً في أحد أليات الجيش المصرى ، ولما جاء عهد البعثات العلمية كان من حسن التوفيق أن اختاره محمد على ضمن أعضاء البعثة الأولى التى سافرت إلى فرنسا سنة ١٨٢٦ ، فجمع إلى ثقافته الأزهرية ثقافة أوروبا وعلومها وآدابها ، فاقببس منها الشيء الكثير ، وازدهرت روحه الأدبية على ضوء الحضارة الغربية ، ولما عاد إلى مصر سنة ١٨٣١ تولى عدة مناصب فى التعليم ، وأنشأ مدرسة الألسن سنة ١٨٣٦ ، وكانت أشبه ماتكون بكلية الآداب والحقوق فى مصر ، وكان رفاعة يتولى نظارتها ويلقى فيها دروسه على الطلبة ، فكانت أكبر معهد لنشر الثقافة فى مصر ، وتنقل فى المناصب العلمية ، وكان لا يفتأ يؤلف ويخرج من حين لآخر مصنفاته ومعارفاته فى العلوم والآداب إلى أن أدركته الوفاة سنة ١٨٧٣^(١) .

وهو أول رائد لنهضة العلم والأدب فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، كان شاعراً رقيقاً بالقياس إلى عصره ، أشربت نفسه الوطنية منذ نعومة أظفاره ، تلقاها من إيمانه الصادق (وحب الوطن من الإيمان) ، ومن فطرته السليمة ، وخلوص نيته ، وقد استثار رحيله عن مصر إلى فرنسا عاطفته الوطنية العميقة المتأصلة فى نفسه الحساسة ، فجادت قريحته وهو فى باريس بقصيدة عبّر فيها عن الحنين إلى الوطن وأهله ، والإشادة بمفاخره ، قال فى مطلعها :

ناح الحمام على غصون البانِ فأباح شيمه مغرم ولّهانِ
وانتقل إلى التّغنى بمصروذ كر محاسنها وقال :

هذا لعمري إن فيها سادة قد زُينوا بالحسن والإحسان
يا أيها الخالق عليك فخارها فإليك أن الشاهد الحسان
ولئن حلفت بأن مصرَ لجنّة وقطوفها للفائزين دوان
والنيل كوثرها الشهى شرابه لأبرّ كل البرّ فى أيمانى
وله قصائد ومنظومات وطنية قالها فى مناسبات مختلفة .

(١) راجع ترجمته تفصيلاً فى كتاب تاريخ الحركة القومية الجزء الثالث — عصر محمد على .

فانظر إلى القصيدة الآتية تجدها تعبر عما يجيش في نفسه من أكرم العواطف وأنبلاها ،
وقد قدمها هو بقوله « وقلت أيضا وطنية » ، فالروح الوطنية تتمشى حتى في تقديمه
لقصائده ، قال :

يا صاحِ حُبُّ الوطنِ حِلْيَةٌ كلِّ فَطْنٍ

مَحَبَّةُ الأوطانِ من شُعَبِ الإيمانِ
في أخِرِ الأديانِ آيةٌ كلِّ مؤمن

مساقطُ الرؤوسِ تلذُّ للنفوسِ
تذهبُ كلُّ بوسٍ عنا وكلَّ حزنٍ

ومصرُ أبهى مولدٍ لنا وأزهى متحدٍ
ومربعٍ ومعهدي للروحِ أو للبدنِ

شَدَّتْ بها العزائمُ نيطتْ بها التماثُ
لطبعنا تلاءمُ في السرِّ أو في العلنِ

مصرُ لها أيادٌ عليا على البلادِ
وفخرها ينادي ما المجد إلا ديدنى

الكونُ من مصراقتبسٍ نورًا وما عنه احتبس
فخرٌ قديمٌ يؤثرُ عن سادةٍ ويُنشرُ
زهورُ مجدٍ تُنثرُ منها العقولُ تجتنى

دار نعيم زاهية ومعدن الرفاهية
آمرة وناهية قدماً لكل المدن

قوة مصر القاهرة على سواها ظاهرة
وبالعمار زاهره خصت بذكر حسن

أبناؤها رجال لم يثتم محال
وجندهم صنيذ وقلبه حديد
وخصمه طريد بل مدرج في كفن

وقال من قصيدة أخرى يدعو إلى افتداء الوطن بالنفس والمال :

وعزيز الموطن نخدمه برضا في النفس نحمه
مال المصري كذا دمه مبذول في شرف الوطن
تفديه العين بناظرها والنفس بخير ذخائرنا
تهدي في نيل نظائرنا بشرا العليا أعلى ثمن

وقال يصف الجيش المصري ويشيد بمفاخره :

نُنظِّمُ جُنْدَنَا نَظْمًا عَجِيًّا يُعْجِزُ الْفُهْمَا
بِأَسَدٍ تُرْعِبُ الْخَصْمَا فَمَنْ يَقْوَى يَنَاضِلُنَا ؟

رجال ما لها عدد كمال نظامها العدد
حُلاها الدرع والزرْدُ سنان الرمح عاملنا

وهل لحيولنا شبه كرائم ما بها شبه
إليها الكل منتبه وهل تخفى أصائلنا ؟

لنا في الجيش فرسان لهم عند اللقاء شان
وفي الهيجاء عنوان تهيم به صواهلنا

فها الميدان و (الشقرا) سقت أذن العدا وقرا
كأن نرسل الصقرا فمن ينبغي يرسلنا

مدافعنا القضا فيها وحكم الخنف في فيها
وأهونها وجافها تجود به معاملنا

لنا في المدن تحصين وتنظيم وتحسين
وتأييد وتمكين منيعات معاقلنا

وهذه الأبيات لمن خير ما قيل في وصف الجيش المصري ، ولا شك أن رفاة قد استلهم شعره من مفاخر الجيش في عهده ، فهو يصور العصر الذي عاش فيه تصويرا صحيحا ، لا مبالغة فيه ولا إغراق ، وإن قصيدته لتشبه أن تكون لوحة فنية يخيل لمن ينظر إليها أنه يلمح فيها كثنائب الجيش المصري تسير إلى ميادين الحرب ، تحف بها أعلام النصر والظفر ، تحوض غمار القتال . بقلوب ملؤها الشجاعة والإقدام ، وتجاهه الأخطار قوية الإيمان ، ثابتة الجنان ، مجهزة بالسلاح والمدافع « تجود به معاملنا » ، ولو لم يشهد رفاة مفاخر الجيش المصري في ذلك العصر ، لما جادت قريحته بهذا الشعر ، وهكذا يتأثر الشاعر والأديب بالعصر الذي يعيش فيه ، والبيئة التي تحيط به ، ويصور الحياة على عهده ، فكأنما هو قطعة من عصره ، أو مرآة تنطبع فيها مشاهد الحياة السياسية والاجتماعية ، ومظاهر الحالة الفكرية والأخلاقية .

وإنك لتلمح أيضا عظمة الجيش المصري من قول رفاة في قصيدة أخرى يخاطب فيها الجنود :

يا أيها الجنود والقادة الأسود
إن أممكم حود يعود هامي المدمع

فكم لكم حروبٌ بنصركم تؤوب
لم تثنكم خطوبٌ ولا اقتحامُ مَعَمَّع

وكم شهدتم من وغي وكم هزمت من وبغى
فمن تعدى وطنى على حكام يصرع

وتتجلى روحه الوطنية المتطلعة إلى الحرية في تعريبه نشيد الحرية (المارسليرز) ، فإن النفس لا تميل إلا إلى ما هو محبب إليها ، فهذا النشيد قد استثار ولا شك إعجاب رفاة رافع ، حتى مالت نفسه إلى تعريبه ، وإظهار ما احتواه من العواطف الوطنية الفدائية في حلة عربية قشبية .

وإذا تأملت في شعر رفاة رافع الذى نقلنا طرفا منه وجدت فيه تقدما نسبيا إذا قارنته بأسلوب شعراء المدرسة القديمة التى سبقتة ، كالشبراوى والطار والخشاب وغيرهم ، ويعد شعره دور الانتقال إلى دولة الشعر الحديثة التى حمل لواءها البارودى ، وإسماعيل صبرى ، وشوقى ، وحافظ .

حقا إننا إذا وضعناه إلى جانب شعر شوقى مثلا ، لجاء فى المرتبة الثالثة ، أو الرابعة ، ولكن يجب ألا ننسى أن رفاة رافع نشأ فى عصر كانت اللغة العربية وآدابها فى دور تأخرها واضمحلالها ، فله على نهضة الشعر والأدب فضل لا ينكر .